

الجزائر ودول شمال أوروبا⁽¹⁾ 1600-1830م

أ/ قرباش بلقاسم

قسم التاريخ، جامعة معسكر - الجزائر

إن علاقات الجزائر مع دول شمال أوروبا خلال الفترة العثمانية، لا تزال مجهولة بشكل شبه كلي لدى القارئ والباحث الجزائري؛ خاصة وأن المصادر التي أشارت إليها باللغة العربية تعتبر معدومة، ولإعطاء نظرة شاملة حول الموضوع، عمدنا إلى إحداث هذه الدراسة من خلال المصادر والأبحاث الإنجليزية التي توافرت لدينا. وأغلبها تعود لباحثين سويديين ودانماركيين وألمان نشروا أبحاثهم باللغة الإنجليزية، باعتبارها اللغة الأكثر انتشارا في العالم خلال الفترة الحالية.

وتبدأ فترة هذه الدراسة بأوائل القرن السابع عشر، باعتبارها الفترة التي بدأت فيها دول شمال أوروبا الولوج إلى المتوسط. وهذا بعقد الهولنديين لمعاهدة امتيازات مع العثمانيين سنة 1608م، وتنامي الولوج السويدي والدنماركي للمتوسط؛ نتيجة لارتفاع أسعار الملح في لشبونة. وتنتهي الدراسة بنهاية القرن الثامن عشر وتراجع هذه الدول، لصالح التوسع الإنجليزي والفرنسي بالمتوسط.

ظهور دول شمال أوروبا بالبحر المتوسط:

شهدت سواحل أوروبا المسيحية هجمات مكثفة خلال الفترة الحديثة، من قبل بحارة الجزائر؛ هذه الهجمات كانت تدخل في إطار الصراع الإسلامي المسيحي بالبحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وكانت أكثر المناطق تعرضا لهجمات البحارة الجزائريين، تلك المنطقة الواقعة بين رأس فينستر بالشمال وجزر الكناري في الجنوب الغربي؛ هذا لأن سفن أوروبا الشمالية المتوجهة جنوبا، كانت تحمل مواد ثمينة. نتج عن هذا الوضع أسر العديد من مواطني شمال أوروبا الذين وجدوا أنفسهم كأسرى على سواحل المغرب الإسلامي عامة والسواحل الجزائرية خاصة.

وتعتبر قضية الأسر في البحر المتوسط قضية روتينية؛ ما دامت هذه الدولة لم توقع على معاهدة سلم تكفل لها حرية العبور في المتوسط، وأغلب هؤلاء الأسرى كانوا بحارة وقليلاً منهم مسافرون، وبعد القدوم بهم إلى الجزائر كان يتم بيعهم في الأسواق والاحتفاظ ببعضهم كعمال تابعين لسلطة الدولة، "وبطبيعة الحال، فالقراصنة الجزائريون لم يكونوا وحدهم من يقومون بهذا النشاط - لأن المسيحيين قاموا بهذه الأعمال أيضاً: كفرسان السانت جون بمالطا؛ كما وجدت أسواق الأسرى في الموانئ المسيحية وبخاصة في ليفورنو وإيطاليا"⁽²⁾.

إن أكثر مدنيتين ألمانيتين ساحليتين برزتا خلال الفترة الحديثة، هما هامبورغ وليباك، حيث استطاعت هذه الأخيرة أن تقود تجارة واسعة خلال الثلث الأخير من القرن السادس عشر بالبحر المتوسط؛ وفي المقابل كانت منطقة شمال الأراضي المنخفضة قادرة على أن ترث علاقات تجارية غنية للفلاندر⁽³⁾ والبرينت⁽⁴⁾ بعد بداية الثورة الهولندية، وبعد سنة 1590م بدأت تظهر بأعداد كبيرة في البحر المتوسط؛ وعكس هذا لم تستطع الدنمارك أن تنظم تجارتها وراء رأس فنيستر بدرجة كبيرة قبل القرن الثامن عشر لكن بعد ذلك وبسرعة أصبحت قادرة على أن تدخل المنافسة ضد منافسيها. كما أصبحت كل من المدينتين الهانسييتيكية Hanseatic (الأراضي المنخفضة والدانمارك) مطالبة بمعالجة المشكل الذي يخص أسر قادتها في البحر من قبل بحارة شمال إفريقيا⁽⁵⁾.

إن المشروع السويدي البحري في المتوسط أواسط القرن السابع عشر؛ لم ينتج فقط نتيجة للأسعار الرخيصة للملح؛ لكن نتيجة للسياسات الأمنية الجديدة للرجال المرافقين للسفن أيضاً... فقد شهدت السياسات الاقتصادية السويدية خلال هذه الفترة تشكّل مصالح جديدة في البحر المتوسط: وهذا لإيجاد الملح بثمن رخيص وأسواق للسلع السويدية في أوروبا الشمالية. فارتفع أسعار الملح في كل من ستيل⁽⁶⁾ Stubal و لشبونة Lisbon دفع التجار السويديين إلى ولوج البحر المتوسط، وهناك دخلوا إلى عالم يتميز بالعنف والحروب، بين الإمبراطوريتين العثمانية والإسبانية للسيطرة على المتوسط... وخلال القرن السابع عشر أصبح يرتكز هذا الصراع على الغارات الساحلية وهذا بالدعم العثماني لبحارتهم المستقرين على سواحل شمال إفريقيا، بعد تراجعها في الحوض الغربي للمتوسط، وفي العالم المسيحي أخذت مالطا وليفورنو الدور الإسباني⁽⁷⁾.

وأدى تحرر شمال أوروبا من الهيمنة الإسبانية إلى دخول دولها البحر المتوسط، وهذا لدعم موقعها التجاري في المناطق العثمانية، لكن دخولها إلى المتوسط جلب ضدها هجمات البحارة

الجزائريين باعتبارها دولا معادية لم توقع معاهدة تضمن لها حرية الملاحة في المتوسط، الأمر الذي أعطى شرعية لهجمات البحارة الجزائريين ضد سفن هذه الدول.

وحسب تقرير فرنسي يعود إلى أواسط القرن الثامن عشر، جاء فيه أن التجارة البحرية السويدية تحتل المرتبة الخامسة في أوروبا، خلف بريطانيا وفرنسا، والأرضي المنخفضة والدنمارك، متقدمة بذلك على الإسبان والصقيليين؛ فالسويد أصبحت فعلا قوة مهمة بالبحر المتوسط، تقود تجارة ضخمة مع جنوب أوروبا. وفي نفس الوقت فإنه ورغم هذا، فإن القواعد الاقتصادية التقليدية، جعلت من السويد دولة متخلفة... لكن الفترة الممتدة بين 1670 - 1680م شهدت استقرارا كبيرا للتجارة السويدية، حيث كانت تتوجه السفن السويدية نحو البرتغال محملة بالحديد، والزفت والقطران، والأسلحة لتعود وهي تحمل الملح البرتغالي؛ إلا أنه وفي سنة 1690م، وبعد ارتفاع أسعار الملح البرتغالي، غير التجار وجهتهم نحو سواحل المتوسط⁽⁸⁾.

وخلال الحرب الشمالية العظمى 1700 - 1721م، شهد النشاط البحري السويدي في الجنوب الأوربي انحطاطا؛ خاصة بعد التورط الدنماركي في الحرب بين سنتي 1709 - 1720م، الأمر الذي جعل الهولنديين يسيطرون ثانية على التصدير والاستيراد بالمنطقة. وأدى السلم الموقع مع روسيا إلى إنهاء الحرب سنة 1721م، ليصبح للسويديين طموح كبير في تجارة بحرية مستقلة⁽⁹⁾.

كتابات الشمال الأوربي المتعلقة بالجزائر:

كانت رسائل الأسرى تنهال على الملك السويدي، وعائلة الأسير. فمثلا: في سنة 1661 راسل أحد الأسرى المشتغلين على ظهر إحدى السفن الجزائرية، والذي كان اسمه جون أرفيدسون (John Arvidsson) البحرية الملكية حول وضعيته المزرية في المدينة. وبعد هذا أصبحت الرسائل توجه إلى الكنيسة مطالبة إياها بجمع الأموال لافتدائهم... وفي قضية أرفيدسون قام قائد البحرية شخصيا كارل غوستاف رونغال (Carl gustave Wrangel) بمراسلة القنصل عن قيمة الفدية⁽¹⁰⁾، فالرسائل تبقى وثائق جد مهمة في فهم حالة الأسرى المتواجدين بالجزائر.

وعندما كان القائد الهولندي توماس هيس يجري مفاوضات مع باشا الجزائر بين سنتي 1685 - 1686، كتب في يومياته: "سفن برتغالية وهولندية وإنجليزية وجنوبية - إحدى عشرة سفينة محملة بأكثر من 300 عبد، جلبوا إلى الجزائر في مدة لا تتعدى الأربعة أسابيع"⁽¹¹⁾.

وعكس دول البحر المتوسط الساحلية التي شهدت ظهور كم هائل من الكتابات المتعلقة بالساحل المغربي؛ خلال القرن السادس عشر (كأعمال سيرفنتيس، هايدو وغيرهم)، فإن المعلومات التي كانت تضمها دول الشمال حول المنطقة، كانت أغلبها عبارة عن أعمال مترجمة من الفرنسية والإسبانية واللاتينية، فخلال القرن السادس عشر كانت أغلب المصادر المتوفرة عن الجزائر، تكتب باللغة اللاتينية ثم تترجم إلى باقي اللغات الأوربية، "ومنها ذلك الكتيب اللاتيني الذي ألفه الفارس السير جون نيكولاس ديغون دو فيلقاقون (St. John Nicholas Durand de Villegagnon)، أحد المشاركين في الهجوم الإسباني على الجزائر سنة 1541م، حيث عنوانه بـ (Carlo V Imperatoris Expeditio in Africam ad Algeriam)، وقد ترجمت هذه الوثيقة مباشرة إلى عديد اللغات الأوربية، أما الترجمة الإنجليزية فقد صدرت سنة 1542م، عن الترجمة الفرنسية تحت عنوان⁽¹²⁾: "مرثية ورسالة حزن من الضروري على كل رجل مسيحي قراءتها..."⁽¹³⁾. وحتى العمل الشهير الذي يعود لصاحبه الهولندي سيمون دو فيريس، هو عبارة عن نقل لعمل الأب بيار دان، فحتى العنوان هو منقول عن كتاب الأب بيار دان: "تاريخ البرابرة وقراصنتهم". وكذا إحصاء عدد الأسرى اعتمد فيه الكاتب على الأب بيار دان، حيث ذكر أن 32 ألف أسير كانوا موجودين بالجزائر سنة 1621م، وهو نفس العدد الذي قدمه لنا الأب بيار دان.

كتابات أخرى شهدت رواجاً كبيراً في الأراضي المنخفضة خلال الفترة الحديثة، فمثلاً رواية "تهب أمستردام" التي تعود لإحدى الفتيات الصغيرات من أمستردام، والتي أسرت من قبل بحارة جزائريين، حيث نشرت سبع مرات بين سنتي 1693 - 1780م؛ إضافة إلى صفحات أخرى من كتاب "اليهودي الحقيّر" أو "قصص العديد من العبيد المجهولين والتسجيل القوي لواحد من الرحالة غير المحظوظين"⁽¹⁴⁾.

لقد ظهرت الأخبار المتعلقة ببخارة المغرب الإسلامي ومعاملة الأسرى في الجزائر، في الرزنامات والصحف الهولندية أيضاً، فمثلاً رزنامة دو سلفيني ميركيريوس، التي نشرت سنة 1686م في أمستردام، احتوت تواريخ عن أسر بحارة شمال إفريقيا للسفن والبحارة الهولنديين، إضافة إلى التدابير المتخذة لتحرير الأسرى. وفيما يخص الصحف فأشهرها: أمستردام دينغسدغس كورنت، وأورديناري ليدس كورنت التي زودت قراءها بمعلومات ضخمة عن المغرب الاسلامي؛ سواء تلك المتعلقة بالمفاوضات التي كانت تجري بين الدول الأوربية والجزائر، أم الأساطيل التي كانت تجهز للقضاء على نشاط البحارة الجزائريين، الحروب، وتبادل الأسرى بين مناطق شمال إفريقيا وأوروبا. وإحدى هذه الروايات زودتنا بمعلومات جد

مهمة فيما يخص الأسرى الأوربيين بالجزائر، ففي إحدى المرات قام أحد القباطنة الفرنسيين بإعطاء وعود للهوغونوت⁽¹⁵⁾ الفرنسيين بترحيلهم نحو العالم الجديد؛ لكنه بعد ذلك قام بجلبهم إلى مدينة الجزائر وبيعهم كعبيد⁽¹⁶⁾.

هجمات البحارة الجزائريين على سواحل المحيط الأطلنطي:

إن مواطني الملك الدنماركي الذين كانوا يعيشون على الجزر الواقعة شمال المحيط الأطلسي، يعتبرون الأكثر تعرضا لهجمات "القراصنة" الجزائريين، ومنها آيسلندا وجزر الفارو... وعلى سبيل التمثيل لا الحصر: تعرضت عديد المناطق الواقعة في آيسلندا سنة 1627 لهجمات البحارة الجزائريين؛ حيث أسر أكثر من 100 شخص. وفي نفس السنة هاجم الجزائريون جزيرة هايمي الصغيرة الواقعة على الساحل الجنوبي لجزيرة آيسلندا، وقتلوا ما لا يقل عن 43 شخصا، وأسروا 242 شخص. وفي سنة 1629م اقتادوا 30 امرأة من مستعمرة هفالبا على جزر الفارو⁽¹⁷⁾.

في 17 جوان 1631م أبحرت سفينتان من الجزائر، تحت قيادة رجل حرب هولندي (مراد رايس)؛ كانت السفينة الأولى محملة بـ 24 مدفعا وطاقم من 200 مقاتل؛ أما الثانية فقد كانت تحمل نصف تجهيزات السفينة الأولى، وفي طريقهم أسروا سفينة من دارتموث الواقعة بين إنجلترا وإيرلندا... وبتاريخ 19 جوان أرسى الجزائريون بالقرب من الرأس القديم لكينسال، أين استطاعوا أسر سفينتي صيد من دانغارفن، (واحدة تحت قيادة الكابتن جون هاكيت والأخرى بقيادة توماس كاراو تضم خمسة رجال كطاقم)، وفي 20 جوان رسوا على سواحل كوف (بالتيمور)، وأسروا أكثر من 100 شخص تم جلبهم إلى الجزائر⁽¹⁸⁾. وبعد خمس سنوات من هذه العملية، أرسى الجزائريون على ساحل يبعد بأحد عشر ميلا عن جزيرة بريستول، وأسروا 200 شخص.

وتمثل الروايات البحرية جزءا مهما من الوثائق؛ التي يمكنها أن تقدم لنا معلومات غزيرة عن الوضع في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي خلال الفترة الحديثة. ومن هذه الروايات نذكر: رواية هان ثود غرام الدنماركي (Han Thod Gram) الذي كان على متن السفينة جومفرو كريستينا، التي أفلعت من ميناء تروندهيم في 7 سبتمبر 1769 باتجاه لشبونة، وعندما كانوا بالقرب من رأس فينستر اعترضتهم إحدى السفن الجزائرية، ويقول صاحبها: "عندما اقتربت منا (السفينة) خفنا أن تكون سفينة تركية خاصة؛ لكنها لم تكن سوى سفينة جزائرية، حيث لم تكن هذه الأخيرة في حالة حرب مع الدنمارك. الأمر الذي جعلنا نثق

في جواز سفرنا التركي (الجزائري)، الذي منح لنا منذ مدة قصيرة... ولما أصبحت السفينة أمامنا طلب منا قائدها أن نأتي إلى سطح سفينته ونريه جواز سفرنا... وبهذا توجه قائدنا على متن قارب الإنقاذ (قارب إنقاذ صغير يوضع على سطح السفينة) مع أربعة بحارة. حيث بقي الأربعة فوق سطح القارب انتظارا لعودة القائد. وبعد هذا بقليل، نزل مجموعة من الأتراك والجزائريين⁽¹⁹⁾، وأخذونا إلى قاربهم، وكنا نرتعد من شدة الخوف، حيث اعتقدنا أنهم سيقومون بقتلنا. بعد هذا مباشرة قام الأتراك بحجز سفينتنا وربطها بقاربهم... وأخذها كغنيمه"، ومع بداية نفس الأسبوع نجح "القراصنة" في الاستيلاء على سفينة تعود لمدينة كوبنهاغن، حيث أرسلت إلى الجزائر مع 20 دنماركيا⁽²⁰⁾.

ولوقف هذه الهجمات قام الملك الدنماركي بإرسال العديد من الحملات إلى البحر المتوسط ضد بحارة المغرب الإسلامي؛ فمثلا: في سنة 1638م، أمر الملك القائدين البحريين ليندورمن وغابريال بقيادة فرقة بحرية تطوف حول جزر الفارو لمنع البحارة الأتراك من مضايقة مواطني الدنمارك. وفي سنة 1687م أقطع أسطول مكون من ست بوارج حربية لوقف الغارات البحرية الإسلامية، ضد مناطق الشمال الواقعة حول هالغولند ومصب نهر الألب⁽²¹⁾.

وفي الفترة الممتدة بين سنتي 1747 - 1753م عقدت الدنمارك عديد المعاهدات مع مناطق شمال إفريقيا (الجزائر، تونس، طرابلس، المغرب)، وهذا لضمان مرور آمن للسفن الدنماركية غير المسلحة أو التجارية في البحر المتوسط وحتى في المحيط الأطلسي، حيث جرت حوالي 20.000 رحلة وراء رأس فينستر بين سنتي 1747 - 1807م؛ أكثر من 15.000 منها توجهت نحو البحر المتوسط⁽²²⁾.

تنظيم عمليات الفدية في دول الشمال الأوربي 1600 - 1830:

لقد ظلت الكنائس في العالم البروتستانتي بعد الإصلاح الديني ضعيفة؛ الأمر الذي أثر بشكل واضح على ظهور منظمات لاقتداء الأسرى تخص شمال أوربا؛ وقد ظلت الصدقات التي يجمعها أقارب الأسير الممول الوحيد للاقتداء، فمثلا: في سنة 1547م تم تجميع صدقات في مدينة دانزيغ (Danzig)، وحتى بعد مرور 70 سنة بقيت الصدقات هي المصدر الوحيد لاقتداء الأسرى.

إن تجدد الحرب بين إسبانيا وهولندا سنة 1621م، فتح الباب واسعا أمام مدينتي الهانسيستيك (ليباك وهامبورغ) للتجارة في البحر المتوسط. وفي الوقت نفسه جعلهما عرضة لهجمات البحارة الجزائريين، ما أدى إلى تزايد أعداد الأسرى الألمان في المنطقة. "فبعد مرور سنة واحدة فقط من اندلاع الحرب الهولندية، قام القباطنة والقادة الدنماركيون بتأسيس

صندوق ستاك فون أشتن كاسي؛ لتحرير أعضائهم المتواجدين بالشمال الإفريقي... وفي الغالب كان البحارة الدنماركيون المأسورون، قد جاؤوا من طبقات اجتماعية فقيرة حيث إن الصدقات الضرورية لم يقدمها الأقارب أبداً⁽²³⁾.

وأول صندوق للتأمين الإجباري عرفه العالم، كان في ماي سنة 1624م، حيث إنه وبعد أشهر من الجدل بين الجهاز الحكومي وجمعية البحار، تم تأسيس صندوق سكلافنكيس الهامبورغي؛ وهو عبارة عن مكتب يدار من قبل البحرية الهامبورغية، مهمته جمع الضرائب التي يقدمها البحارة ومالكو السفن الخاصة، حيث تفرض الضريبة على كل سفينة تبحر غرب الأراضي المخفضة، وهذه المبالغ ستستخدم لاستعادة الأسرى المتواجدين بشمال إفريقيا... وبعد تأسيس هامبورغ لهذا الصندوق قامت مقاطعة ليباك بعدها مباشرة بتأسيس صندوق مشابه سمته "سكلافنكيس" سنة 1627م... وقد استطاعت هاته الصناديق أن تحرر الأسرى حتى وإن كان عددهم كبيراً... وهذا راجع إلى السياسة الحيادية التي اتخذتها هاتان المدينتان، حيث تعتبران من بين قلائل المدن الأوروبية التي التزمت الحياد خلال حرب الثلاثين سنة⁽²⁴⁾.

وفي سنة 1723م أسس المكتب السويدي إكسترا ليشنتن، لجمع المال الخاص بافتداء الأسرى من شمال إفريقيا، وكان يعتمد في جمع المال على التبرعات التي تقدمها له قوافل السفن؛ وفي هذا المقام يجدر بنا الإشارة إلى أن النظام السويدي في جمع الأموال كان يختلف عن نظيره الدنماركي؛ رغم أن الاثنين كانا يتشابهان في طريقة عقد المعاهدات مع دول شمال إفريقيا. والضريبة التي تخص نظام إكسترا ليشنتن، كانت تفرض على كل من الصادرات والواردات السويدية. وقد كانت هذه الضرائب ظالمة ضد السلع والسفن الخاصة التي كانت تمارس نشاطها التجاري في بحر الشمال والبلطيق. ومع هذا إلا أن هذه الضرائب لم تغط النقص الحاصل⁽²⁵⁾.

ورغم تمكن السويديين من دفع أموال الفدية؛ إلا أنهم عملوا على إقامة علاقات سلمية مع دول شمال إفريقيا؛ ففي سنة 1727م كانت كل الخطوات جاهزة لإقامة سلم مع الجزائر، وهذا تأثراً بالمعاهدة التي عقدها الهولنديون مع الجزائر سنة 1727م. وقبل هذه السنة، كانت السفن الهولندية والسويدية تسير في مواكب مشتركة بالبحر المتوسط، تجنباً لهجمات بحارة الجزائر؛ لكن المعاهدة التي وقعتها الهولنديون مع الجزائر، أدت إلى وضع السويديين في خطر كبير⁽²⁶⁾.

والجدول التالي يقدم لنا مقارنة رائعة للاختلاف السائد بين هولندا و(الدنمارك، هامبورغ، ليباك) في طريقة افتداء الأسرى من شمال إفريقيا:

أنظمة افتداء الأسرى لدول شمال أوروبا	الدنمارك، هامبورغ، ليباك	هولندا
عدد الأسرى بشمال إفريقيا 1590 - 1830	5 - 8000	6 - 7000
أموال الافتداء	ضرائب مستمرة تقوم بها الدولة إضافة إلى الصدقات	أغلبها تعود لصدقات المواطنين والقليل تقدمه الدولة
تنظيم الفدية	أغلبها تقوم بها الدولة، مركزية	أغلبها تقوم بها منظمات خاصة، اللامركزية
متوسط المدة الزمنية التي يقضيها الأسرى بالجزائر	في الأغلب أقل من سنة	بين الثلاث والخمس سنوات
نسبة نجاح افتداء الأسرى	80-90%	33-55%

إن الجدول السابق يوضح لنا التنظيم الرائع الذي اتخذته مدينتا هامبورغ وليباك، تجاه أسراها بحيث استطاعت أن تنظم قضية افتداء الأسرى؛ عكس الهولنديين الذين فشلوا في تنظيم عمليات الفدية، وهذا يعود إلى أن التجارة الهولندية، كان يتم تسييرها من أمستردام، أي أن مالكي السفن كانوا يوظفون وكلاء خاصين. فبعد أسر السفينة كانوا يقومون باستعادة الحمولة مهملين البحارة؛ نظرا لقيمة هذه الحمولات، وهذا الإهمال للبحارة والمسافرين أدى إلى تراكمهم في الجزائر بأعداد كبيرة.

الأسرى في الجزائر بين الحقيقة التاريخية والبروباغندا الأوربية:

إن نظرية الإسقاط التاريخي وعلى حسب اعتقادي المتواضع، تبقى نظرية يشوبها الكثير من النقص والتشويه؛ فالكتاب الغربيون يتبعون عملية الإسقاط التاريخي في معالجة قضية الصراع الإسلامي المسيحي، حيث يقومون بإسقاط تفكير عصرنا الحالي على العصر العثماني، وبهذا يتوصلون إلى نتائج تعطي أحكاما خاطئة عن العثمانيين، مثل: "العثمانيون متوحشون ولم يستطيعوا التأسيس لحضارة قوية"؛ وفي الوقت نفسه يتجنبون وبشدة العمل بنظرية المقارنة بين الوضع السائد في الدولة العثمانية والإمبراطورية الإسبانية خلال الفترة

الحديثة، ولو قمنا بعملية مقارنة بسيطة سنكتشف البون الواسع بين الطرفين، "ففي الوقت الذي كانت فيه إسبانيا لا تحترم أي مذهب غير الكاثوليكية، وتمنع بشدة بناء المساجد على أراضيها، كان المسيحيون يملكون تسع كنائس في غلطة، وثلاثة في العاصمة العثمانية إستنبول نفسها"⁽²⁷⁾.

ويذكر غراماي أن العديد من المسيحيين، تخلوا عن دينهم بطيب خاطر ليصبحوا مسلمين؛ وقد شملت القائمة: "857 ألماني، 138 هامبورغي، 300 إنجليزي، 130 هولندي وفلاندري، 160 دنماركي، 250 مجري وروسي"⁽²⁸⁾. وهذه الشهادة تمثل حقيقة تاريخية أكدها أحد المعاصرين لتلك الفترة، وتمحي تلك الشبهات التي ربطت دخول المسيحيين في الإسلام بالجانب المادي وكذا التخلص من قيود العبودية.

وفي الفترة الممتدة بين سنتي 1579 - 1980م شهدت خمس مدن مارونية مسيحية بسورية الدخول في الإسلام، ونفس الشيء حدث مع 1400 مواطن كوسينزي Cosenza بكالابريا، "الذين لم يصبحوا قادرين على تحمل الحكومة الإسبانية في هذه المناطق"... وقد وصف لنا ليوناردو دونا Leonardo Donà، أحد النبلاء من عائلة كيريني البندقية، والذي درس الدين الإسلامي، ثم ذهب إلى مكة لتأدية مناسك الحج: "أن حياة النبل البندقي أكثر أمنا من حياته؛ لكنه على الأقل تمكن من إنقاذ روحه"؛ كما أنه حاول إقناع والدته بالدخول في الإسلام، "وهذا بمعانقتها نور الإسلام الذي منحه له الله، والتخلي عن دينها المسيحي"⁽²⁹⁾.

ويذهب أحد الأسرى الإنجليز إلى أبعد من ذلك، عندما يصف كتابات الأسرى الأوروبيين بغير الموضوعية، ومدى اندهاشه من اللامصداقية التي يتبعها هؤلاء الأسرى ضد الأتراك والجزائريين، مع العلم أن هذا الأسير كان متواجدا بالجزائر وقضى بها عدة سنوات. ويذكر في هذا الصدد: "كل العالم يهتف ضد الجزائريين ومعاملتهم السيئة للعبيد"، وأعمالهم التي تصل إلى حد التعذيب لتحويل أسراهم إلى الاسلام (Mahometism)، لكن هذا مجرد كلام خاطئ، ووجهة نظر أنانية؛ فالأسرى المسيحيون بالجزائر يقتربون العديد من الأخطاء دون أي عقاب، ولا أحد منهم يجبر على عمل ما لا يطيق، وأكثر من هذا؛ يتم الصفح عنهم عندما يمرضون. والعديد منهم مسرور بوضعيته، حتى إنه لا يقوم بشراء فديته، رغم أنه قادر على شرائها. ونفس الشيء يحدث في جميع الأراضي الإسلامية، باستثناء بعض المناطق الخاصة، مثلما يحدث عند الملك المغربي مولاي إسماعيل، الذي يعتبر بطبيعته متوحشا (الأمر لا يتعلق بالإسلام)؛ حيث إنه يستخدم كلا من مواطنيه وعبيده في أداء الأعمال الشاقة. وعلى الرغم من قسوة معاملته للعبيد إلا أنها تبقى أكثر تسامحا من تلك القسوة التي يعانها العبيد في

الهند الغربية؛ وذكر الكابتن بريثوايت (Captain Braitwhite) الذي رافق القنصل البريطاني العام روسيل إلى المغرب: "إن وضعية العبيد المسيحيين في المغرب ليست سيئة كما يصورها الكثيرون. فعلى الرغم من بقائهم بمعامل الحجارة لساعات طويلة؛ إلا أن وضعيتهم لم تكن أسوأ من عمالنا الذين يشتغلون في نطاق سيطرتنا، وحتى قادة السفن لم يجبروا على العمل؛ خاصة إذا منحوا القليل من المال إلى القايد، وعند مرضهم يتم أخذهم إلى منازل المنظمات الدينية للبقاء هناك، أين يتم العناية بهم، إضافة إلى أن الأموال التي ترسل إليهم من قبل أصدقائهم في أوروبا تعتبر ملكا لهم"⁽³⁰⁾.

وتروي زوجة القنصل الإنجليزي بالقسطنطينية في رسائلها: "أعرف أنك تتوقع مني أن أقول لك أشياء خاصة عن العبيد، وتتصور أنني نصف تركية، عندما لا أتحدث عن العبودية بالطريقة الفظيعة التي تحدث بها المسيحيون قبلي. لكن لن أصمت عن استحسان المعاملة الإنسانية التي يعامل بها الأتراك هاته المخلوقات (تقصد المسيحيين)، فهم لا يسيئون استخدامهم. وعلى حسب اعتقادي، أن عبوديتهم، ليست أسوأ عبودية في العالم. هذا صحيح، فهم لا يعملون كثيرا، ورغم هذا يمنحون ملابس سنوية ذات قيمة عالية، عكس عبيدنا الذين يشتغلون تحت سيطرتنا"⁽³¹⁾.

ويرى الفرنسيون أن احتلالهم للجزائر، جاء لوقف هجمات "القراصنة" الجزائريين؛ لكن أحد الكتاب الإنجليز يقول إنه "بعد الحرب الفرنسية الألمانية سنة 1871م، قام الفرنسيون بأسر 20.000 ألماني، تم نقلهم نحو ليون، ومن هناك حملوا إلى الجزائر بعد تنظيمهم في جماعات، وهذا من أجل العمل في "المستعمرة الجزائرية"⁽³²⁾.

الخاتمة:

إن العمل الذي قمنا بتقديمه لا يعني شيئا بالمقارنة مع المصادر والوثائق؛ المهمة التي لا تزال بكرا في أرشيفات هاته الدول، والتي لم تلق الاهتمام اللازم من قبل الباحثين؛ ولهذا فإن الكتابة في تاريخ الجزائر العثماني لا تعني مجرد ترجمة الوثائق الفرنسية ونقلها إلى اللغة العربية، بل تعني خلق نوع جديد من الوثائق يمكن من خلالها البحث في تاريخ الجزائر العثماني بنوع من المقاربة التاريخية، والتي تمنح الباحث فرصا كثيرة في اعتماد المادة التي يغطي بها بحثه.

الهوامش:

- (¹) وقد تطرقنا في بحثنا هذا إلى المناطق التالية: ليبك، هامبورغ، هولندا، السويد والدنمارك.
- (²) Piracy and Privateering in the Golden Age Netherlands, Virginia: Palgrave Macmillan, 2005, p80.
- (³) الفلاندر: جزء من شمال أوروبا كان في الماضي وحدة قائمة بذاتها حتى بداية العصر الحديث. يشكل ثلث المنطقة التاريخية للفلاندر حالياً مقاطعات الفلاندر الشرقية والغربية في شمالي بلجيكا، وتمتد قليلاً لتدخل في هولندا. أما بقية الفلاندر فتقع حالياً في النصف الشمالي من المنطقة الإدارية الفرنسية المعروفة باسم نور.
- (⁴) البرينت: عبارة عن أراضي تقوع في الأراضي المنخفضة (هولندا حالياً) وتمتد إلى غاية الحدود البلجيكية.
- (⁵) Magnus Ressel, *The North European way of Ransoming: Explorations into an Unknown Dimension of The Early Modern Welfare State*, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010, p127.
- (⁶) إحدى المدن البرتغالية الساحلية.
- (⁷) Joachim Ostlund, Swedes in Barbary Captivity: The Political Culture of Human Security, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010, p149.
- (⁸) Leos Muller, Swedish Shipping in Southern Europe and Peace Treaties with North African States: An Economic Security Perspective, Historical Social Research, Vol35, N°4, 2010, p191.
- (⁹) Ibid., p192.
- (¹⁰) Joachim Ostlund, op.cit., p150.
- (¹¹) Robert. C. Devis, Cristian slave, Muslum masters, White slavery in the Mediterranean, the Barbary coast and Italy, Palgrave Macmillan, 2003, p07.
- (¹²) María Antonia Garcés, Cervantes in Algiers A Captive's Tale, Nashville: Vanderbilt University Press, 2002, P25.
- (¹³) A lamentable and piteous Treatise verye necessary for everie Christen Manne to reade: wherein is contayned, not onely the high Entreprise and Valeauntness of th' Emperour Charles the V. and his Army (in his Voyage made to the Towne or Argier [sic] in Affrique, agaynst the Turckes, the Enemyes of the Christen Fayth...) but also the myserable Chaunces of Wynde and Wether; with dyverse other Adversities, hable to move a stonye Hearte to bewayle the same, and to pray to God for his Ayde and Succor, 1542.
- (¹⁴) Piracy and Privateering..., op.cit., p82.
- (¹⁵) طائفة بروتستية كانت سبب كل الحروب الدينية الفرنسية الممتدة بين سنتي 1562 - 1629، وكانوا يستقرون بالجنوب الفرنسي، بمدينة لاروشيل، وبعد القضاء على ثوراتهم تعرضوا لكثير من الإضهاد ما دفعهم إلى الهروب نحو الأراضي العثمانية، التي كانت تشهد تطوراً كبيراً فيما يخص التعامل مع الطوائف الدينية، فمدينة إستنبول وحدها كانت تحوي ثلاثة كنائس أما غلطة فكانت تضم تسعة كنائس خلال القرن السادس عشر.
- (¹⁶) Ibid., p83.

⁽¹⁷⁾ Erik Gobel, The Danish Algerian passes, 1747-1838: An Example of Extraterritorial Production of Humansecurity, Historical Social Research, Vol 35, N°4, 2010, p165.

⁽¹⁸⁾ Theresa D. Marruy, From Baltimore to Barbary: The 1631 Sack of Baltimore, History Ireland, July/August 2006, p15-16.

⁽¹⁹⁾ كانت أغلب السفن الجزائرية التي تطوف المتوسط، تضم جزائريين بجانب الأتراك حتى أنه في بعض الأحيان، كان قائد السفينة جزائرياً كالرايس حميدو.

⁽²⁰⁾ Erik Gobel, Ibid., p167.

⁽²¹⁾ Ibid., p166.

⁽²²⁾ Dan H. Andersen, Hans-Joachim Voth, The Grapes of War: Neutrality and Mediterranean Shipping Under The Danish Flag, 1750-1807, Discussion Papers in Economic and Social History, N° 18, Sept. 1997 p04.

⁽²³⁾ Magnus Ressel, op.cit., p130.

⁽²⁴⁾ Ibid.

⁽²⁵⁾ Ibid., p194.

⁽²⁶⁾ Ibid.

⁽²⁷⁾ Charlesa. Frazee, Catholics and Sultan, The church and the Ottoman Empire, 1453-1923, London: Cambridge University Press, 1983, p28.

⁽²⁸⁾ Peter Lambson Wilson, Pirate Utopias: Moorish Corsaire and European Renegadoes, Canada: Autonomedia 1995, P40.

⁽²⁹⁾ Eric R Dursteler, Venetians in Constantinople: Nation, Identity, and Coexistence in the Early Modern Mediterranean, Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 2006, p115-116.

⁽³⁰⁾ Anthony Benezet, Some Historical Account of Guinea, its Situation, Produce, and The General Disposition of its Inhabitants: With an Inquiry into The Rise and Progress of The Slave Trade, its Nature, and Lamentable Effects, London: Re-printed by W. Owen, 1772, P70-71.

⁽³¹⁾ Anthony Benezet, op.cit., p71.

⁽³²⁾ Augustus Oakes, R. B. Mowat, The Great European Treaties of The Nineteenth Century, London: Oxford University Press, 1930, p283.